الفصل الرابع عشر

ولادة شعب ـ ٢

ليست الفوضى، في الحقيقة، شيئاً يمكن وَصْفهُ؛ بل يمكن إعطاء فكرةٍ عنْها فقط، بسَرْد أحداث مُنْتَقَاةٍ عَرَضاً، تُعْتبر نموذجيّة. وسأقدّم في هذا الفَصل بعْضَ هذه النماذج مع تعليق داعم لتوضيح صورة الواقع الذي ولدت فيه باكِسْتان. ولا يمكن فَهْم طبيعة ومزاج وسياسات دولة باكسْتان مالم نَحْفَظْ في ذِهْننا الظروف التي نشأت فيها. ويمكن الاطلاع على التفصيلات الكاملة في كُتُبِ أخرى[1] وفي وقائع الصحف المعاصرة.

والحقيقة الكبيرة عن الأشهر الثلاثة أو الأربعة المُفزعة التي بدأت في أوائل آب أغسطس ـ ١٩٤٧ هي ببساطة الفظائع الوحشية المثيرة للغثيان التي اقْتُرِفَتْ على مستوى واسع لم يسْبق له مثيل في الماضي من قِبَل الهنْدوس والمسلمين والسيخ. وبعض أكبر المذابح التي قام بها الهندوس والسيخ كانت مخططة بعناية بينما لم تكن هناك مثل هذه الأعمال الإجرامية من قِبَل المسلمين، وإنْ وُجدتْ فهي قليلة جدّاً.

ورغم أهمية هذه الحقيقة إلا أنّها في الواقع... ثانوية. والأناس الغربيّون الذين يشعرون بالقَرفِ مبدئياً من مثل هذه الأشياء...، يَجب أنْ يُذَكرّوا بأشياء جرت في أوروبا في الماضي غير البعيد مثل الحروب الدينية في القرن السابع عشر والتي تشبه أحداث شبه القارة الهندية التي جرت في الاربعينات من هذا القرن. علماً بأن أحداث أوروبا لم تقع خلال فورة غضب وهياج عَارِضَيْن بل كسياسةٍ مرسومةٍ باردة محسوبة على مَرّ السنين. وكتابات اللوردْ (رَاسِلْ) أو شواهد محاكمة (أيخْمَانْ) تصلح وسيلة لمقارنةِ ما حدث في ظّلِ نظام (هتْلرْ) في المانيا ـ وهي اليوم حليفة بريطانيا ـ وبين الفظائع الحامية التي جرت في جنوب آسيا خلال نَفْسِ العَقْد.

ولقد احتار مراسلو الصحف الغربية خلال فترة التقسيم فيما يفعلون؛ لقد عزموا على رواية الشروط القائمة داخل وحول البنجاب ولكنهم خافوا إذا ما ابتعدوا كثيراً عن قاعدتهم في دلْهي ستمنع المواصلات... وُصُولَ رسائلهم إلى مكاتبهم في نَفْسِ الوقت الذي تصل

---

(١) مثل كُتب (تاكِز)، و(كامبلْ جونسون) و(مِينُونْ) و(إِسْمَاي) و(مُوْن).

فيه رسائل منافسيهم الآخرين. إلا أن كثيراً منهم مع ذلك، استطاع القيام بأسفارٍ بعيدة. وربّما كانت أفضل المقالات التي كُتِبَتْ آنذاك لجريدة (التايمز) بقلم (آيانْ موريُسونْ) الذي كان سابقاً مُراسِلاً حربياً في شمال أفريقيا وبورما ومناطق أخرى[1]. والمقطع التالي هو من برقية بَعَثها من (جَلُّنْدورْ) في الرابع والعشرين من آب ـ أغسطس ـ واصفاً الأحداث التي توالت لمدة ثلاثة أسابيع.

«أفْظعُ بكثير مما شاهدناه خلال الحرب العالمية الثانية. هو التعليق العام للضباط ذوي الخِبْرة من البريطانيين والهنود عَنْ المذبحة القائمة الآن في شرق البنجاب. فالسيخ يستأصلون المسلمين من شرق البنجاب بذبحهم المئات منهم يومياً وإجبار الآلاف على الهرب غرباً، وبحَرْقِهِم قرى وأكواخ المسلمين ولَوْ أن الحرائق قد تصل لقراهم هم أيضاً. ولقد رُتّب هذا العنف على أعلى مستويات زعامة السيخ ويُنفّذ بصورة منظمة قطاعاً بَعْد قطاع. بعض المدن الكبيرة مثل (أمْرِسْتَارْ) و(جَلَّنْدورْ) هي أكثر هدوءاً الآن لأنه لم يبق فيها مسلمون. وفي جولةٍ في الطائرة دامت ساعتيْن فوق البنجاب خلال عطلة الأسبوع شاهدت خمسين قرية تَلْتَهِمُها النيران.».

تجتمع مجموعة مسلحة من عصابات السيخ قوامها خمسون إلى مئةِ رجل عادةً في معابد السيخ (غُورْدْوارا) قبل القيام بسلسلةٍ من الهجمات ـ على المسلمين ـ وكثير من سيخ الإمارات المستقلة يلتحقون بهذه العصابات. ويتَسلح المسلمون عادة بالهراوات فقط وعندما يشعرون بخطر الهجوم عليهم يصعدون الأسطحة ويدقون الطبول طلباً للنجدة من الجالية المسلمة المجاورة ويتجهزون بالحجارة لمواجهة المهاجمين أما السيخ فيهاجمون بأسلوب «علمي»! الموجة الأولى منْهم تطلق الرصاص من بنادقها على المسلمين فوق الأسطحة لتجبرهم على النزول منها، والموجة الثانية من السيخ ترمي القنابل اليدوية فوق الجدران لداخل البيوت وفي هذه الفترة من الارتباك الحاصل تأتي الموجة الثالثة من المهاجمين بسيوفهم العريضة التي هي أيضا شعار ديني لهم، وبحرابهم، ويبدأ الذبح الخطير للمسلمين، أمّا الموجة الأخيرة من السيخ والمؤلفة عادة من كبار السن، وأكثرهم من الجنود المتقاعدين، بلحاهم البَيْضاء الطويلة يحملونَ الشُعَلَ ويتخصصون بإشْعَال

(١) ولقد قُتِلَ لاحقاً بينما كان يُغطي الحرب الكورية.

الحرائق. أمّا الفرسان المسلحون بالسيوف الذين يَتجولون خارج القرية فيتولون قَتْلَ من يحاول الهرب. ولقد شاهد الضباط البريطانيون عصابات السيخ (الجاثا) تضُم نساءً بل وأولاداً يحملون الحراب. ولقد ارْتُكِبَتْ فظائع مخيفة وشوهت أجساد كثيرة ولم يوفر المهاجمون السيخ أي مسلم رجالاً ونساءً وأطفالاً. وفي قريةٍ واحدة كان عدد الجثث خمسين جُثة منها ثلاثون جثة من النساء القتيلات. ووجد ضابط آخر أربعة اطفال ماتوا مَشْوِيين على النار!

وتشْديد هجمات السيخ المنظمة ـ على المسلمين ـ خلال النصف الأول من آب ـ أغسْطُس ـ وصلاتها الواضحة بهجمات مماثلة حول وداخل الإمارات بخاصة (باتيالا) و(كابورثالا)، والانتقام القويّ بعد أيام في أجزاء من غرب البنجاب بخاصة حول (لاهور)؛ وربما الشيء الأكثر تدميراً كان تجريد العناصر المسلمة الكبيرة العدد في «بوليس» شرق البنجاب من أسْلِحَتِها[1]؛ كل ذلك أدى في يوم الاستقلال في ١٥ آب ـ أغسطس ـ إلى انْهيار الإدارة على جانبي الحدود. وكان من نتيجة ذلك التحرك السكاني الهائل الخائف ـ بالاتجاهَين في الأسبوع الثالث من الشهر، في ظروف قاسيةٍ جداً، رُبما لم يَعْرِفْهُ تاريخ البشرية قبْلاً.

وأكثر هؤلاء ساروا على أقدامهم في قوافل وتَعَرَّضُوا كثيراً للهجوم والسلْب والذبح، وكانت قوافل المسلمين أكثر ارْتباطا من قوافل السيخ المتجهين في طريق معاكس، ولذلك تعذبوا أكثر وكانت خسائرهم ـ أي خسائر المسلمين ـ أكبر. وتعرض المشاة من اللاجئين إلى مَخاطر أقلّ من الذين حاولوا الهروب بالقطار لان الهجمات التي خُطِّطَتْ على قطارات اللاجئين بَعْد تحويلها عن الخط الحديدي أو توقيفها أصبحت تخصُّصاً مُرْعِباً في تلك الفترة واستمرت حتى أواخر الخريف. على الأقل، حاول مشاة اللاجئين الدفاع عن أنفسهم فلقد كانوا يتحركون ويَخْتبؤُون داخل الحقول بين الزرع ويتجمعون مع قوافل أخرى يشدون بها أزرهم؛ ولكن الذين ازدحموا في القطارات في حافلات الحقول بين الزرع ويتجمعون مع قوافل أخرى يَشُدُّونَ بها أزرهم؛ ولكن الذين ازدحموا في القطارات في حافلات مستقلة كانوا يُحصرون في حوافلهم لاحول لهم ولا قوة عند ما يُوقف القطار

(١) جرى ذلك في (أمْرِسْتَاز) في العاشر من آب، قبل خمسة أيام فقط من انتهاء الحكم البريطاني، بأمرٍ من نائب المعتمد الهندوسي المعُين حديثاً.

بالقوة ويتغلب المهاجمون على حَرَسِ القطار أو يَخُون الحرس واجبهم، ويَذْبَحُون اللاجئين.

وهذا وصف[١] شاهد عيان لإحدى المذابح في القطار كتبه الكولونيل (شِيرخان)[٢]:

«تركتُ لاهور في الثاني والعشرين من ايلول ـ سبتمبر ـ إلى (أمْرِسْتارْ) بعد انتهاء الاجتماع، ووصلت ناحية كلية (خالصة) (للسيخ) حوالي الساعة الرابعة وعشرين دَقيقةً بعد الظهر. كان هناك تجمعات كبيرة من السيخ يحملون السيوف والحراب، وأعدادٌ أكبر منهم كانوا جنوب الطريق وكان إطلاق النار مستمراً. توقفت قرب محطة لواء (غرْوالْ) في كلية (خالصة) حيث قيل لي أن هناك هجوماً على أحد القطارات فسألتهم إن كانوا قد فعلوا شيئاً فقالوا لا، فتابعْتُ سيري إلى رئاسة أركان الكتيبة لإعلامهم بالهجوم. وكان قائد الكتيبة قد خرج وأمر مجموعة من الجنود بالتوجه لمحطة القطار. في الساعة الثامنة مساءً ذهبت إلى القطار وكان على بُعْدِ ميلٍ واحد من المحطة وبدا أن كُل ركابه قد قتلوا او اعتقلوا ما عدا ثلاثة عشر جنديا هندوسيا من حراس القطار. رأيت ضابطا بريطانيا برتبة ملازم وبجواره موظف القطار المسلم مَقْتُولين؛ وكان لايزال هناك الآلاف من الناس وجُلهم من السيخ يطلقون الشعارات. ولقد حذرني الضابط المكلف بالقوات هناك من خطورة وجودي هناك فعدتُ إلى استراحتي، وكانت القوات متمركزة هناك وعلى بعد ٤٠٠ ـ ٥٠٠ متر كانت مجموعات السيخ تعدادها حوالي خمسة آلاف وفي صبيحة اليوم التالي ذهبت للمحطة بعدما سحبوا القطار إليها خلال الليل فوجدت الآنسة (سرابْهاي)[٣] مع فريق يحمل النقالات وهم حوالي اثني عشر متطوعاً يقومون بأداء الاسعافات الأولية للمصابين وينقلون الإصابات الخطرة للمستشفى؛ لقد قاموا بذلك العمل طوال الليل وتحدثت إلى من بقوا على قيد الحياة فقالوا إنهم لاجئون من إمارة (سَلْوارْ) وضعوا في القطار في (دلْهي) وأُخِذَتْ منهم أغلب أمْتِعَتهم، ثم طلب منهم تسليم أي آلة حادة معهم في (أمْبَالا) وتقدم من كان لديه سكين فسلمها ثم أطلقَتْ عليهم النيران قرب (بيسْ) وهاجمتهم عُصْبَةٌ من

---

(١) الكتاب الأكثر تفصيلاً لهذه المذابح هو كتاب (تاكر)، كذلك حوى كتاب (إسماي) وصفاً حياً لها.

(٢) وأصبح فيما بعد (ميجر جنرال) (لواء) ورئيساً لاركان الجيش الباكستاني ومات في حادث تحطم طائرة قرب (كراتْشي) عام ١٩٤٩م.

(٣) إحدى الهندوسيات العاملات في حَقْل الخدمة الإجتماعية.

السيخ تبلغ حوالي مئة شخص قبل محطتين أو ثلاثة من (أمْرِسْتَارْ) ولكن حرس القطار ردوا المهاجمين، وبعد مرورهم (بأمرستارْ) تباطأ القطار ثم توقف وبدأ بعد ذلك رأساً وابل من الرصاص ينْصب عليهم من الجهتيْن، ثم اقْتحَم القطارَ بعد ذلك مئات السيخ: بدأوا أوّلا بِجَمْع حُلي النساء ورموا كل الصناديق خارج القطار، وكُلّ من عارض قتلوه بالحراب والسيوف ثم سحبوا النساء قائلين: هيا معنا، ومن قاومت قتلوها وبعدما سلبوا كل شيء بدأوا عملية القَتْل. كان هناك بعض إطلاق نار داخل القطار. ربما من بعض الحراس ولكنه توقف وألقيتْ عدة قنابل يدوية داخل الحافلات.

ثم تكلَّمْت مع بعض حراس القطار فقالوا إنهم اطلقوا بعض العيارات ولكن الملازم المسؤول عنهم قُتِل، ولما توقف القطار هربوا ناجين بأنفسهم وذكرو هؤلاء الجنود الثلاثة عشر انه كان معهم ثمانيه جنود مِسلمين وكذلك الملازم قائد الحامية ويعتقدون انهم قُتِلوا جميعاً وكانت هذه المجموعة تنتمي لسلاح المدْفَعية.

من المستحيل تقدير عدد القتلى لأنهم كانوا مكدسين على بعضهم في حافلات القطار: حوالي (١٢٠٠ ـ ١٥٠٠) قتيل، ولقد أُرْسلَتْ أربعون شاحنة محملة بالجرحى إلى (لاهور) وفيهم حوالي مئتان (٢٠٠) أصيبوا بجروح غير بليغة. وسُحب القطار من (أمرستار) إلى (جَلَنْدوُرْ) وقال البوليس انهم سيرمون جثث القَتْلى في نَهْرِ (بيسْ)».

هناك وصف درامي لبعض الرحلات عبْر البنجاب سَجَّلَه عفوياً بَعْضُ البريطانيين المراقبين، في قِمة الأحداث منهم (هِنيكر) و(مُونْ)؛ وهذه عينة مما لم يُنْشر سَجلتها الآنسة (جانيت م. لينْ) التي كانت خلال آب ـ أغسْطسُ ـ في إجازة بكشمير، ومن مدْرستهافي (دِيَرادانْ في أوتارْ بْرَاديش). وتُعْطي هذه العينة لمحاتٍ عن الأوضاع في الناحية الباكستانية، قالت:

«عند التقسيم كنت مع أصدقاء في أحد المعسكرات في (سونا مارغْ) وبما أن الدورة كانت ستبدأ في أيلول ـ سبتمبر ـ كان عليّ أن اترك المكان قبل أصدقائي. وبدَأْتُ الرحلة حوالي ٢٦ آب ـ أغسطس ـ لم نَسَمع أخباراً كثيرة ولكن كان هناك شائعات كثيرة. وكان (الأوُتُوبُوس) من (سرينكار) بكشمير إلى (راولبندي) فارغاً تقريباً. وحتى وصوله إلى (كوهالا) وهي حدود ولاية كشمير مع الولاية الحدودية الشمالية الغربية، كانت الرحلة طبيعية مع انه قيل لنا إن الاوتوبوس قد أوقف في اليوم الفائت وسُحِبَ منه اثنا عَشَر

هندوسيا ثم قُتلوا بعد (كوهالا) أوقَفَنَا عدة مرات بعض الصبية المسلحين بالهراوات وقضبان الحديد وأحيانا قليلة بِمُسدس. وطلب من المسافرين جميعاً الخروج من (الباص) وفتش الصبية تحت المقاعد وبين الأمتعة عن أي هندوسي مختبئ؛ وبما أن عدد الركاب كان قليلاً ولم يُثر أحد منهم أيّ شكوك تَرَكونا لنَسْتُمرَّ في السفر.

ووصل الاوتوبوس محطة (راولبندي) في نَفْسِ الوقت الذي وصل فيه قطارٌ قادم من (كُوْهَاتْ). لقد أطلقت النار على القطار أثناء رحلته إذْ جاءت سيارات الإسعاف لِنَقْلِ الجرحى وقُتل كثير من الركاب. ولقد ألغَيْتْ رحلة القطار الذي كنت أنوي الحَجْزَ فيه. وقضيت ليلةً كئيبةً إلى حدٍّ ما في غرفة استراحة المحطة. وحَمَدْتُ الله في الصباح عندما جاء ضابطان بريطانيان وأستاذ أميركي وألحوا على أن أسافر معهم وكانت رحلتنا إلى (لاهور) بدون ايةِ حادثة مع أننا رأينا كثيراً من القرُى المحروقة وقوافل الهاربين مع أبْقارهم ومتاعهم يسيرون على اطراف الحقول.

كانت محطة (لاهور) في فَوْضى؛ وعند خروجنا من القطار طُعنَ بقربي شخص وسقط أرضاً؛ أخذوني إلى مكتب مدير المحطة بينما ذهب زملائي في السفر لترتيب شاحنة عسكرية لأخْذي إلى أحد بيوت المنصّرين في (لاهور). لقد قيل لي انه ليس هناك قطار إلى (سَحَارَانْبور) في (أوتار براديش) في اليوم التالي ولكنهم نَصَحُوني بالاتصال هاتفياً بصورة مستمرة فيما إذا وجد قطار بعد ذلك. وفي لاهور اتصلت بآنسة (مُنَصِّرة) أخرى هي الآنسة (رومبولدْ) والتي كانت في مُعَسْكر (سُونامارغ) وتركت قبلي بيوم واحد، وفي طريقها من (راولبنْدي) عانَتْ الكثير، ولقد استقلت القطار الليلي الذي توقف في منتصف الليل وفُتحَ باب مقصورتها وجاء موظفو القطار بفتاةٍ عمرها عشر سنوات مقطوعة اليدين وطلبوا من الآنسة (رُومبولد) العناية بها. ولقد قُتلَ والدها، مدير المحطة، ووالدتها أمامها.

وأخيرا قيل لي وللآنسة (رُوْمبولْدْ) أن قطاراً ربما سيترك لاهور في صباح نهار الأحد ووُضِعْنَا في حافلة في الدرجة الأولى وأغلقوا علينا الباب. وكانت المحطة مزدحمة اكثر من السابق وكانت عائلات بكاملها من اللاجئين مع أبقارها ومتاعها تُعسْكِرُ على أرصفة المحطة. رأيت رجلاً مُسنا فقيرا يُدفَعُ من رصيف المحطة أمام القطار القادم. وبدأ القطار رحلته ببط حوالي الساعة التاسعة ومررنا بمناطق فيها جثث متروكة في العراء. وفي منطقة توقف القطار وألقيت جثة أحد السيخ خارج القطار من مقصورة مجاورة. وكان كبير السن

ويبدو من لباسه أنه من الميسورين. كنا نشعر. بالخوف داخل مقصورتنا المغلقة ونحن غير قادرين على فِعْلِ أي شيء. وَصَلْنا (سَاحَارنبورْ) حوالى منتصف الليل وكان القطار الذي نقلنا من (أمرستار) إلى (لاهور) هو آخر قطار، على ما أظن، يُسَيَّرُ من لاهور إلى (أمْرِسْتَارْ) حتى عام ١٩٥٥ حيث استُؤنفت رحلاته مرة أخرى».

وعندما جاء الأسبوع الثاني من ايلول ـ سبتمبر ـ كانت المذابح في البنجاب المقَسَّم قد ٱنْتَشَرَتْ في كل المناطق شمالا وجنوبا وشرقاً وغربا، وبدا أنها ستستمر وربما لا يمكن ضبطها. والنقطة الهامة في توسّع الاضطرابات في جميع الاتجاهات هي أن انتشارها شمالاً لم يُلْفِتْ الأنظار لأن وجودها أصلاً هناك لم يكن معروفاً تماماً في بَحْران الفوضى الضاربة، وقد كان لها أكبر الآثار البعيدة المدى، وأكْثرها إزْمانا.

وكانت تلك، هي الثورة على المِهْراجا الهندوسي في كَشْمير وعلى معاونيه والتي قام بها الفلاحون المسلمون الأشداء، وكان بينهم العديد من قُدامى الجنود، فلقد قاسى هؤلاء وأجدادهم لمدة طويلة تحت حكم الأمُراء الهنْدوس.

وكانت التقارير التي تَصِلُهم آنذاك عن المذابح المنظمة ضد إخوانهم في الدين من المسلمين على أيدي السيخ والهنْدوس في السهول، ومخاوفهم أنفسهم على مُسْتَقْبلهم تحت حكم المهراجات الهندوس، هي التي دفعتهم للعمل. وبلادهم كشمير ـ هي مع ذلك خليط متوحش من الجبال الضخمة المكسوة بالحراج لايَسْهل الوصول إليها؛ فالطرق كانت قليلة وسيئة بسبب إهمال المهراجات الهنْدوس المتعمد لتلك المناطق المعروفة بَعَدم خنوع أهلها وأنفَتهمْ بعَكسْ الناس «المطيعين» الذين يعيشون حول العاصمة (سْرِينكار). وانهارت تماماً وسائل المواصلات عبْرَ البنجاب إلى مراكز تَجْميع الأنْباء في (دِلْهي) و(كراتْشي). لذا كانَتْ المعلومات التي تصل إلى العالم الخارجي عن هذه الثورة متناثرة قليلة لم يُؤبَهْ لأكْثِرَها، والمرجع الأفْضل عنْها كان (سَيْمونْز). إلا أن المادة التي جمعها لم تظهر إلاّ بَعْدَ عدّة أسابيع من بدء الثورة. وسَنسْبرُ غورها بعُمقٍ في الفَصْل التالي.

كذلك لم يُسْمع كثيراً أيضاً عن حوادث الجنوب والجنوب الشرْقي مِثْل إمارة (بَهَا ولْبُورْ) في باكستان، و(أَلْوارْ) و(بها ـ رتبور) في الهند. والأخبار السيئة ولو أنها لم تكن كارثة ـ عن اضطرابات (بُهاوِلْبور) نقلها (مُونْ) بصورة رائعة من مصادر معاصرة خاصّة. أما الحوادث الأكثر شُوءماً فكانت في (أَلْوارْ) وفي (بهَارتْبُورْ) وأدَّتْ إلى نهايةٍ مُرَوِعةٍ للصراع

الذي ذكرناه سابقاً، والذي استمر متقطعاً منذ أيار ـ مايو ـ في (جرْغاوون) في البنجاب بين المسلمين المحليين من قبائل (المِيُو) وبين جيرانهم الهنْدوس من قبائل (الآهير) و(الجات). لقد بَدَا الصراع في حينه اضطرابا طائفياً عادياً مثل الذي عانَتْهُ المنطقة من قبل ولو أنه أصْبَح أكثر حِدةً بعد زيارة عناصر المخابرات من (دِلْهي). فَبعْدَ ذلك فجأةً في أول آب ـ أُغُسْطُس ـ انغمست المناطق المجاورة في (أَلْوارْ) و(بَهَارَتْبورْ) في العُنْف مع انها لم تكن، حتى ذلك الحين قد تأثرتْ كثيراً به؛ وأخذ الصراع يراوح مابين مناطق الإمارات وبين ما كان يُسمى حينذاك «الهنْد البريطانية». وكل من يقرأ بعناية الروايات عن تِلْك التطورات الجديدة، المجموعة في كتاب (تَاكِرْ) لايستطيع تحاشي الاستنتاج بأن ذلك كله كان من ترتيب المسؤولين الهنْدوس في المقاطعتين، الذين كانوا يسعون للاستئصال التام للمسلمين. والأمرُ الذي كان يُثير الغَثَيان بخاصة، هو ورود تقارير عن اشتراك الوحدات العسكرية من قوات الإمارتين، مَعَ الرعاع الهنْدُوس، في المذابح المخططة ضد قُرى (الميو). وكان اهتمام (تاكر) بالموضوع من زاوية عسكرية، لقد خدم عَدَدٌ لابأس به من قبيلة (المِيوُ) في الجيش مكان كثير من متقاعديهم أو منْ هم في إجازة في المناطق المضطربه. وهؤلاء وأمثالهم من غير المُتسيسين الذين نجوا بأنفْسهم، هم الذين نقلوا أخبار المذابح المنظمة، كشهود عيان في (منداوَارْ) و(سِلْغاوُونْ) وكثير من الذين هربوا من تلك المذابح اصْبَحوا بعد ذلك ضَحايا لِهجمات السيخ الذين تعرضوا لهم خارج (أمْرِسْتارْ) في محطة القطار، كما ذكرنا سابقاً، ومن الجدير بالذِكْر أن الحكومة الهنْدية ضبطت في بداية العام الثاني مُتعصبي الهندوس في (بهارتوارْ) و(ألوارْ) بعد أن ثبت لها أنهم اشتركوا في مَقْتل السيد (غانْدي).

ويكفي ما ذكرناه عن الشمال والجنوب. أما سريان الاضطرابات غْرباً فكان نحو الولاية الحدودية؛ إذْ حَدَثَتْ اضّطرابات في (بيشاوِرْ) و(نوشيرا) ما بين ٧ ـ ١٠ أيلول سِبتمبْر، وحَظيتْ هذه باهتمام أقل مما تسْتحق لأنها تزامنَتْ مع الطفحان المتجه شَرْقاً ـ أسوأ اضطرابات (دِلْهي) التي سنعود لها بعد هنيهة ـ ومع أن اضطرابات الولاية الحدودية سرعان ما انتهت، إلا أنها كانت هامة ليس فقط بذاتها بل بتأثيرها لاحقاً على مشكلة كشمير. لقد تَقَدَمَتْها حوادث متعددة أسوؤها في (هَاريبُورْ) في ٢٦ آب ـ أغسطس ـ ولَحقَتْها إصابات وإحراق بعد ذلك مباشرةً في (تَختْ بْهايْ) بمنطقة (مَرْدَانْ)، ثم هجوم جرئ على

قطار كان يُظن إنه يحمل قوات من السيخ والهندوس بين (كوُهَاتْ) و(خوْسَلْغار)[١]. وفي ٤ ايلول ـ سبْتمبر ـ دوَّن الحاكم السرْ (جورج كانينْغْهامْ)[٢] مايلي: أصبح من الواضح، منذ عشرة أيام أنه مالم تتوقف مذابح البنجاب سيكون منَ المستحيل علينا أن نضبط الناس هنا بعد ورود روايات مثيرة عن ذبْحِ المسلمين في شرق البنجاب، حتى ولو لم يكن صحيحاً إلاّ رُبْعها، لكانت كافية لتُغْضِبَ المسلمين.

وفي ٧ أيلول ـ سبتمبر ـ وبعد عودته من (بيشاورْ) إثْر زيارةٍ قصيرة لـ(ناثْياغالي) دَوَّنَ ذلك المساء ما يلي:

«عند اقترابنا من القلْعة استطعْنا أن نرى أن شيئاً غير عادي يجري في البلد وذلك من الطريقة التي وقف الناس بها في المدينة، ووجَدْنا أن كلّ المداخل مُقْفلة. ولقد بدأ الاضطراب عند ما أطلق جندي سيخ من فرقة الرماة التاسعة عشرة ـ ورُبما خَطَأً ـ رصاصة على جُنْدي مسلم من اللواء البنجابي، وانتشر الخبر فبدأت الهجمات على السيخ والهندوس. وازداد القَتْل في المساء ورُبما قتلَ حوالي مئة من السيخ والهندوس منهم الكثير من الموظفين وعائلاتهم. وهَدَأتْ الأمور إلى حدٍّ ما في الغد في الكانتونات العسكرية مع استمرار بَعْضِ عمليات القَنْص، ثم ساد السلبُ وانتشرت الحرائق في المدينة. وطلَبْتُ هذا الصباح ثلاث فصائل من ميليشيات (خُرَّامْ)[٣] للمساعدة، بما أن عدد الشرطة كان آنذاك قليلا، وكذلك عدد القوات المسلحة المتواجدة في المدينة. والمشكلة أن الشرطة، وإلى حدٍّ ما، الجنود المسلمين تغاضوا عن السَلْب والقَتْل لأنهم، في الحقيقة، يتعاطفون إلى حدٍ كبير مع بقية المسلمين وكانت الاعتداءات موجهة بصورةٍ رئيسةٍ ضد السيخ».

وزادت الحالة سوءاً بمرور الوقت وجاء في تقرير رسمي أن مجموعة كبيرة من الفلاحين المُسلحين يرافقهم أفراد من قبيلة (الأفريدي) ـ الباثان ـ دخلوا منطقة (ديغاري) و(لونجْ) حيث هاجموا أحياء الهندوس وبدأ حريقان كبيران هناك استمرا طوال الليل رغم محاولة إيقاف امتداد النيران بهَدْمِ المنازل المجاورة. وتحَسَّنَتْ الحالة في التاسع من أيلول

---

(١) ربّما كان هو نفس القطار الذي ذكرتْهُ الآنسة (لِيْنْ) في روايتها.

(٢) تقاعد من وظيفة الحاكم عام ١٩٤٦ بَعْد سَبْع سنوات من استلامه المنصب إلا انه عاد إليه، نزولا على طلب السيد جناح وبقي حتى ٨ آب ـ أغسطسُ ١٩٤٧ .

(٣) وحدات من جيش الحدود، راجع الفصل الثاني عشر صفحة (١٤٤).

ـ سبتمبر ـ ودوَّن السِرْ جورج عَنْها ما يلي :

«لقد قامت القواتُ بعمل ممتاز في الليل الفائت، ولقد ارسلتُ بَعْض وجهاء المسلمين ليتجوّلوا بالسيارات ويتحدثوا إلى الناس ليفهموهم أن مْثِلَ هذه الأعمال تُسيئ لباكستان وللمسلمين المتبقين في الهنْد. وفي المساء نزلت ولعْبتُ جولة من (الجولفْ) وكنا، أنا وزميلي، الشخصين الوحيدين الظاهرين في الملعب، ولحق بنا خادمان مساعدان جاءا من حيث لا ندري».

ومع ذلك...، ... بَعْدَ ظُهْرِ ذلك اليوم بالذات بَدَأ الاضطراب في (نُوشيرا) إلى الشرق من (بيشاور) على الطريق الرئيسي، ودام يومين.

ويذكر التقرير أن قُرى (الختاقْ) تميزت غيظاً لدى سماعها أن السيخ هاجموا العمال (الختاق) في البنجاب وقامت مجموعة من الغوغاء بهجوم عنيف على منطقة (سَادَارْ) بـ (نوشِيرَا).

واستمرت مِثْلُ هذه الأعمال طوال العاشر من أيلول. وكانت حصيلة الإصابات تقريباً بين غير المسلمين (١٢٢) قتيلاً وخطْف ست نساء. وخلال فترة الاضطرابات في الولاية الشمالية الغربية ـ الحدودية ـ توقف السفر على الطريق الرئيسي بين (بيشاور) والبنجاب لمدة أربعة أيام بسبب خروج قطارات السكك الحديدة عن خَطّها ما بين (جَهَا نْغيرا) و(خيرْ آباد) وقبل فجرْ العاشر من ايلول استطاعت فرقُ السيخ في القوات المسلحة الانْسِحَاب من منطقة (بيشاورْ) بنجاح واتجهت شرقاً بالطريق البريَّ إلى الهنْد.

وهذا على ما أظُن ـ كما قال السِرْ (جورْجْ) ـ سَيُخَففُ من التوتر عندما يعلن عنه. وبالفعل توقفت الاضطرابات في بلاد (الباثان) بعد ذلك بقليل.

وصف كثير من الصحفيين اضطرابات (دلْهي) الخطيرة في (٧ ـ ١٠) أيلول، كذلك كتب عنّها كُتاب مثل (كامْبِلْ جونْسون) و(مينون) و(إسْمايْ)، وكانت كتابة الأخير جيدة بخاصة؛ لقد دونوا جميعاً انطباعاتهم بعد ذلك، كذلك بعض الأفراد الذين سَجلوا مذكراتهم عن الأحداث؛ لذلك لاضروره للدخول هنا في التفاصيل. ولقد وضعتْ التقديرات الموثوقة رقم ألفْين / ٢٠٠٠/ كعدد للقَتْلى مع أن هناك أرقاماً أعلى بكثير، وبجانب ذلك كُلّه كان لهذه الأحداث أهميتها بحد ذاتها والتي بَرَّرَتْ التركيز الواسع؛ للانتباه: أولا لأنها وقعت على مَدْخَل دار الحكومة الهندية الحديثة الاستقلال حيث يعيش

ذوو النفوذ من مختلفِ الناس والذين يستطيعون رؤية ما يجري ونَقْله إلى الآخرين. وللوحْشية التي مارسوها على أقليةٍ مسلمةٍ مُرتعبةٍ تفوقوا عليها بأغلبية عددية، ولم يكن القَتْل والسلْب والحرق محدداً بالأماكن الفقيرة التي تعج بسُكانها داخل أسوار البلدة القديمة، ولا بالقرى المجاورة بل عَمّ بَعْضَ الاحيان بدون أي رادع (دلهْي الجديدة) بشوارعها العريضة وبيوت رسْمييها الفارهة.

كذلك كان من الواضح أنه إذا لم توقَفْ الاضطرابات بصورة حازمة في هذه النقطة على الخريطة الجغرافية فستمتد شرقاً إلى ولاية (أوتار بْراديش) المجاورة. ولقد تعدّت الاضطرابات المناطق الواقعة بين نهرَيْ (الجومْنَا) و(الغانجيز)، وتكررت الصدامات الطائفية. وكانت (دِلْهي) في الواقع حاجزاً ضد الغزْوِ من الغَرْب؛ وهذه المرة طفح كيل العنف والغزو الطائفي البالغ الحدّة في البنجاب، فإذا فشلت عاصمة الهند الجديدة في المقاومة، وإذا سقطت (دِلْهي) تحت أقدام الشرّ، فالفوضى، لا محالة، سائرة بالتأكيد شرقاً وجنوباً. ولا يستطيع أحد التكهن أين ستتوقّف!

ومن الجدير بالذِكْر أن زعماء الهنْد: السيد (نهْرو) والسردار (باتِلْ) تَوَجّها إلى الحاكم البريطاني وهما اللذانِ اختاراه، للمساعدة ـ وهو اللوردْ مُونْتباتنِ ـ ليَسْتَعينا بخْبرتِهِ وتجربتِهِ في معالجة الأوضاع الخطيرة وَسَلماه، موقتاً، كل السلطة تقريباً. وقبلْ نهاية الأسبوع الثالث من أيلول ـ سبتمبر ـ، وبفضْل قيادته، في الغالب، للجنة مكافحة الاضطرابات التي شُكلتْ خصيصاً لذلك، وبفَضْل نشاط السيد (نهْرو) يمكن القول أنه أمكن التغلب إلى حدٍ كبير على الأزمة مع أن (تاكِرْ) لاحظ: «لم يستطع، لأسابيع عدّة، أي خادم مسلم في الأحياء السكنية (بنيودِلْهي) أن يغامر بالخروج من بيتِ سيده للذهاب للاسواق».

وأثناء ذلك كان العديد من آلآفِ المسلمين من سُكّان (دِلْهي) الذين هربوا مِنْ بيوتهِمْ يتكدّسون في مُعَسْكراتٍ فقيرةٍ للاجئين، أحدهما وياالسُخْرِية القدر، كان القلْعة القديمة التي... بناها في القرن السادس عشر الامبراطور (هُمَايون) والإمْبراطور (شِرْشاهُ) في أوج الحكم الاسلامي للهند. يقول (إسْمايْ):

«كان المنظر مُفْزِعاً، لم يكن هناك ملجأ ولا طبيب ولا ترتيبات صحية ولا واسطة للنقل والاتصال، وكانت تُحيطُني دوائر من اللاجئين بعمق ١٠ ـ ١٢ حلقة وكان نداؤهم مرّةً أخرى لي: ياسيد نريد مساعدتك!».

وكثير من هؤلاء كانوا سيصبحون سُكان باكستان الجديدة، ولقد اختاروا أن يعيشوا فيها ولكنّهم لم يستطيعوا الوصول إليها بسبب المذابح وتخريب السكك الحديديّة في البنجاب، أغلَبُهم من الفقراء ولكن كان بينهم أيضاً ارستوقراطيو (دِلْهي)، موظفون حكوميون من الرُتَبِ العالية والبسيطة، والتجار من كل نوع. ورغم مابدا من ضَعْفِ المعنويات في معسكرات اللاجئين إلاّ أن روح الأمَلَ كانت تنمو في صميم تلك الصعاب. وأخيراً نُقلُوا إلى كراتْشي بالجو وساعدوا باكستان في اجتياز الضغوط المثبطة والارتباكات الكثيرة في الأشهر القليلة الأولى من حياتها.

حقاً، لم يكن هناك في البدْء أي شيء سوى عزيمة الرجال المصممين على استمرار حياة باكستان. وبينما ورث النظام الهندي الجديد في (دلْهي) كل البنايات والأدوات الحكومية الممتازة للحكومة البريطانية السابقة، لم يكن لدى حكومة باكستان في (كراتْشي) لا آلات طابعة ولا تلفونات ولامكاتب ولا حبر ولا أوراق. وناضل الموظفون بهمةٍ لإقامة المؤسسات وبناء الشعب الجديد ليس في غرف القصور الواسعة المبنية بالحجارة الحمراء بل في زوايا موقتةٍ في أكواخ بسيطة مصنوعة من (الزِنْك) وفي ماتبقى من دورٍ خلفتْها الحرب. ولقد ركزوا آمالهم المتوهجة، في هذا المسعى الجديد، على القائد الأعظم ـ الحاكم العام المسلم ـ محمد علي جناح. وكانت زيارة باكستان آنذاك، تُوحي بالأمل من الشعور بالحماس الذي تغلب على الصعاب في أيامها الأولى.